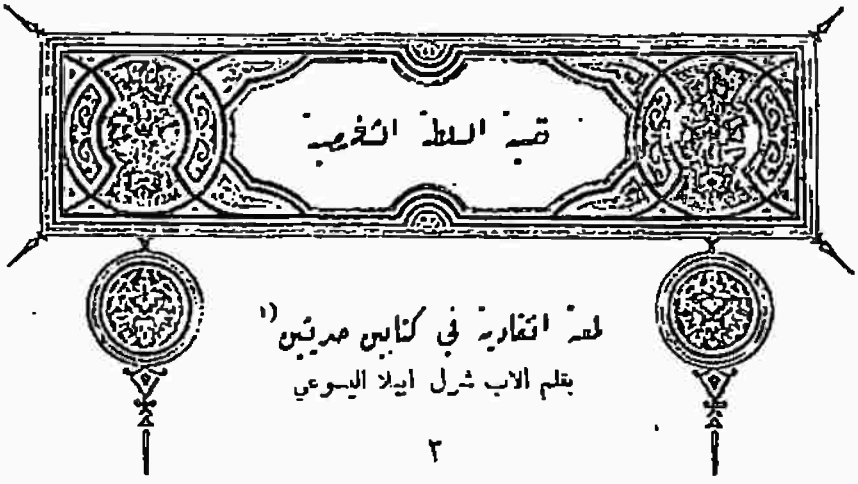

لمحة انتقادية في كتابين حديثين[1]

بقلم الاب شرل ايلا اليسوعي

٢

ماهية السطوة الكاملة

من حيث تأثيرها في المرؤوس

ارتأى بعضهم ان السطوة تقتضي مائعا خصوصياً ينقل هيبة الرئيس الى المرؤوس . فيكون هذا المائع شبيهاً « بالمائع الحيوي » الذي من شأنه ان ينقل افكار فرد الى آخر ، فيستطيع هذا ان يقرأها من بعيد . وقد سبق لنا الكلام عن هذا المائع في جزء حزيران الماضي (ص ٤٠٨).

على انَّ الاب تولموند ، وان كان لا ينفي بتاتاً احتمال مائع كهذا ، فلا يسلِّم بضرورته بل يصرّح ، مستنداً الى الاختبار ، انَّ السطوة التامة هي بغنى عن العامل المذكور.

كذلك يُقيم الادلّة الراهنة على انَّ السطوة لا تعود الى الاستهواء والتنويم المغناطيسي.

وبعد تفنيد النظريتين الموماً اليهما يشرع الاب تولموند في التنقيب عن ماهية السطوة الكاملة فيستطلعها اولاً من تأثيراتها في المرؤوس . ولا غرو فان

(1 L'Abbé Jean Toulemonde, *Licencié ès-Sciences, Docteur ès-Lettres, Professeur de Psychologie appliquée à l'Université Catholique de Lille,*

1° L'Art de commander, Psychologie de l'Autorité personnelle; *in*-8°; *VIII* – 321*pp.*;

2° Pour avoir de l'autorité; *in*-8°, 129*pp. Bloud et Gay, Paris.*

مفاعيل الشيء تُنبئ بما فيه . واليك ما تُحدث السطوة في المرؤوس :

١) الخوف — لا بدَّ منه للحصول على الطاعة ، قلّما يكون ، بادئ بدء . هذا ما تؤيده اصطلاحات الحكّام والمربّين القدماء والحدثاء . اجل انَّ ارباب السلطة في عصرنا الحاضر قد لطّفوا كثيرًا من عوامل الخوف ، ليس فقط في اغلب الشرائع المدنية بل في المعاهد العلمية . على انَّ الخوف لا يزال عاملًا اساسيًا جوهريًا في سياسة الحكومات ، حتى الديموقراطية ، وفي اساليب تربية الاحداث . والحقّ يُقال انك اذا امعنت النظر في الطبيعة البشرية ، ليس مجرَّدةً ولا كما يجب ان تكون ، ولكن معيَّنةً كما هي فعلًا ، خصوصاً في الدَّرج ، وهم الاكثرية ، والفتيان ، ولم يُثقّفوا بعد ، وجدتَ انَّ هذه الطبيعة هي اشدّ ميلًا الى الانفعال منها الى الفعل . فهي « تُنيخ العنق لشهواتها اكثر ممَّا تسوسها . تدفعها قوَّة عنيفة الى ما تتوقع منه لذَّة قريبة شديدة ، ويُقعدها الخمول عن القيام بالواجب المزعج . واذا ما كان هذا الواجب مُلزِمًا به من قبل شخص آخر فانه يبدو للطبيعة بمظهر ممقوت ، مقرونًا بانزعاج لا طاقة لها عليه . فاذ ذاك إمَّا المقاومة جهرًا وإما الانسحاب من امام الواجب تنكُّرًا ، ممَّا يجعل الخوف ضروريًا ، حتى ، اذا ما وقع على المرؤوس ، فكأنه يحدّث ذاته قائلًا : إلَمَ اتمّ العمل المفروض فما عسى يتأتّى عليّ من هذا السيد الهائل ، وايّ عقاب ينقضّ على رأسي . فيكبّ على العمل ، وان مُرغمًا في بادئ الامر ، ولكنه لا يلبث ان تستهويه ادبية الاجتهاد .» (٢ : ٣٥)

هذا اذا قصرنا النظر على الافراد فكيف بنا اذا اعتبرنا الجماهير « فان المتجمهرين يتوهمون انه لا يمكن ان يلحقهم اذًى البتة ... فيظنون انه لا خطر عليهم من ان يستبيحوا كلّ مُنكر . فان وقعت فتنة رأيت ، حتى من كان السكون دأبهم من قبل ، يُقيمون المتاريس في الشوارع ويقلبون العربات ويحرقون المنازل وينكّلون بمواطنيهم بل يقتلونهم بعض الاحيان . يقولون : كلّنا اذنبنا . اذن ليس بيننا من مجرم (*Tout le monde est coupable, personne n'est coupable*) (٢ : ص ٣٧) فايّ رادع عندئذٍ يوقف الفتنة غير الارهاب .

على انه فيما يغلب ، وعلى كل حال مع توالي الزمن ، لا بدّ من تعديل الخوف في قلب المرؤوس فلا يرتعش من رئيسه كالمملوك من مقتنيه بل يجله اجلال الابن لابيه . ومما يلين الخوف الاعجابُ .

٢) الاعجاب — ومن مظاهره والادلة على ضرورته ، دأب المرؤوس في الاقتداء برئيسه ، على ما يغلب . وقد يبلغ بالمرء هذا الميل الى حدّ انه يأخذ من وليّ امره حتى نقائصه . فقد عرفتُ رجلًا نال بعض الشهرة في فنّ الخطابة وكان قد درسه على احد الاساتذة فالتقط منه ما يدعوه ارباب الالقاء « نغمة الوعاظ » (*le ton prédicateur*) فلم يتحرّر منها طيلة حياته .

وعلى كل حال فلا يجدّ الانسان في اقتباس مزايا غيره ما لم يوقن انه عار منها وما لم يستحسنها ويُعجب بها . وسيّان كونه مصيباً في استحسانه او مخطئاً

ومما يُستغرب لاوّل نظرة أن شاعرة الاعجاب هذه تتفق في القلب الواحد مع الأنانية والكبرياء بل تشتدّ بهما . على ان الواقع بخلاف ما يظهر لاوّل وهلة . فانّ الانسان ميالٌ من طبعه الى الافتخار ، فاذا لم يجد مدعاةً له في نفسه ، فانه يعمد الى محامد ذويه ليبتهي بها . أفما سمعتَ الفتى يلهج بعلم ابيه او كرمه ، والخادم بثروة مخدومه . وعلامَ كان الضبّاط في الحرب الكبرى يخاطرون بحياتهم الى حدّ التهوّر والجنون في الظاهر ، وبدون ما داعٍ سوى رغبتهم في ان يروا اعجابَ جنودهم فخضوعهم لاوامرهم ؟ اوَ ليس اعجاب الطلّاب بقوّة عقل استاذهم وسعة معارفه او حزم ارادته من اكبر عوامل سلطته ؟ كان تلاميذ افلاطون يقولون: « هوَ قال » فحسبُ .

٣) الثقة — وهي بنت الاعجاب . فانه يلد في الانفس الاعتقاد بحكمة المعجَب به وعلمه وحنكته . ومن جهة اخرى قلّما يُشغف البشر بما يشغل البال مما تقتضيه الاحوال من النظر السابق الى الحوادث واستدراكها فيرتاحون الى تسليم امرهم ، وبالتالي حرّيتهم ، الى من ايقنوا انه يدرأ عنهم المساوئ ويُنيلهم الراحة والغبطة .

٤) المحبة — ومن معترض يقول انها لا تساكن الخوف في قلب المرؤوس

وانَّ هذا إمَّا يخاف وليه وإمَّا يحبه فلا اخاء بين العاطفتين.

على انَّ الواقع بالخلاف ولاسيما اذا امعنَّا النظر في الحوادث وفي كنه الحبّ الواجب لتوطيد السلطة. «فاذا تلاقى رجلان كانا قد خاضا معاً ساحة الوغى فانهما لا يملّان من المحادثة بما عانيا من الاهوال في المعامع ... فلا شك ان ذكرى هذه الاهوال مما يهيج فؤاديهما. ذلك لأنّ ما مضى من العذاب قد زال عنه تماماً شبح الالم. وانما خلد منه المجد والبطولة والتفاني في سبيل فكرة شريفة سامية. وكأنّ كل هذه الاهوال المشتّتة قد اجتمعت وتمثّلت في شخص الرئيس الحربي، لانه هو ايضاً قد ذاقها او — قلّما يكون — أمر بها .... فيحبه الرفيقان القديمان كما يُحبّان ذكرى مراراتهما القديمة.» (٢ : ٧٥)

وعلى كل حال فليس من ينكر ان الاسكندر وتورين ونابوليون كان جنودهم مشغفين بهم الى حدّ الهوس.

اما اجتماع الخوف والحب طبعاً في قلب الابن لابيه فلا حاجة الى اقامة الحجة عليه:

وقد تحقّق الخبراء من المربين ان الاولاد يحبّون مَن كان ذا حزم من اساتذتهم ويحفظون له الذكر الحسن. وانَّ المعلمين ايضاً يعون في اجتذاب قلوب الطلّاب، لعلمهم ان الحبّ يسهّل الطاعة ويُدعم في قلب الطالب اليقين انَّ ما يلقنه الاستاذ من المعارف هوَ الحقيقة بعينها، وما يأمره به من العمل هوَ الخير بذاته. قال القديس اغوسطينوس: «حيث استتبّ الحبّ فليس من عناء او، ان كان ثمة عناء، فالعناء محبوب.»

على أنَّ حب المرؤوس لرئيسه ليس من نوع الحنان فانّ الحنان ينحدر من القويّ الى الضعيف، لا يصعد. ولا هوَ من نوع الصداقة التي تقتضي او تُحدث المساواة. وانما هوَ اقرب الى الاهتياب والاحترام. فهو مزيج من الخوف والاكرام ومن ثمَّ لا بدّ لتوطيد السلطة من ان يسبقَ الخوفُ المحبةَ في قلب المرؤوس. وإلّا فلا يلبث الحبّ ان ينقلب ويُمسي فيه انانيةً وتمرّداً.

* * *

٣

نفسية صاحب السطوة الكاملة

الى الآن لم ننظر الى ماهية السطوة الا من الخارج . فان مفاعيلها التي سبق البحث عنها هي في المرؤوس دون الرئيس . فبقي علينا ان نكشف النقاب عن داخلية الرئيس الحقيقي كيما نطلع على المزايا التي تمكنه ممَّن هم تحت امارته . وانما تنحصر انواع هذه المزايا في القوة .

والمراد بالقوة هنا ليس المادية منها . فان هذه ، وان كان لها بعض الشأن فليست مما لا يُستغنى عنه . وعلى كل حال لا تجدي السطوة نفعاً ما لم تكن مقرونة بالقوة الروحية . وهذه تقوم خصوصاً بحزم الارادة الذي لا غنى عنه للرئيس .

وينشأ الحزم هذا خصوصاً عن «روح التسلط» الذي سبقت الاشارة اليه في القسم الاول . وقوامه بان يوقن الرئيس تفوقه على مرؤوسيه .

ولا مشاحة ان «روح التسلط» الموصوف قد يصدر عن حب العظمة والكبرياء . على انه يأتلف ايضاً في القلب الواحد مع التواضع الصادق الصميم . فاربّ قديس يحسب ذاته احقر البشر بل اشقى الخطأة ؛ غير انه اذا ما وُلي على جمهور اعتقد انه يرجع عليهم ، ليس بالفضل الشخصي والعلم والتقى ، ولكن بما قُلِّد من السلطة الشرعية . فانها في عين ايمانه الوطيد تُعليه فوقهم اذ ترفعه ، بالرغم مما يوقن من حقارته وعدم اهليته ، الى مقام نائب الله عز وجل . فليس الزهو اصل روح التسلط فيه ، بل الايمان بعظمة الله وربوبيته . واي قوة اشدّ من قوة الايمان الحيّ ؟ بل ان صولة الوليّ تزداد شدة وتشتد وقعاً في الافئدة ، بمقدار ما يتناسى ذاتيته وينقطع فكره الى سموّ وظيفته والخير الذي يتوخاه لذويه .

ومن النتائج الاولى لليقين الموصوف ان يملك صاحب السطوة ذاته وذلك ليس باستسلامه الى الخمول والاهمال وحب الراحة والسلام ، بل بان تتسلط ارادته تسلطاً مطلقاً على قواه العقلية والحسية بل حتى على جسده ، مما ينفي

عنه الاضطراب ويوطد فيه السكينة قلباً وقالباً . فكيف يتمكن من غيره من لا يتمكن من نفسه ؟ وان كان لغضب الرئيس واضطرابه بعض التأثير الحسن في نفس مرؤوسه فما ذاك الا فيما ندر . أما رأيت كيف يتلهى احياناً بعض الصبيان بتحريش رقيهم وتنكيده ، حتى اذا ما ثارت فيه سورة الغضب وفار فاثره ، اخرجوه عن حدّ الصواب واتسع لهم المجال ليسرحوا ويمرحوا على ما يشاؤون .

ومن ملك نفسه احتفظ بوقاره . فتراه رزيناً ، بدون ما تصنع ، في هيئته وسيره وحركته وسكونه وحديثه ولفته وآدابه . يتحاشى الهذر والشتم والكلام الذي السافل ، كما وكل ما من شأنه ان يحمل المرؤوس على الوهم انّ المسافة ، التي يجب ان تفصله عن وليّه ، قد قربت او زالت تماماً .

وملك الذات هذا ينبغي ان يمتدّ حتى الى الذهن والمخيّلة ، فلا يطلق المتمكن من نفسه العنان لمخيلته ، كيلا تلد لذهنه اشباحاً تضعضع قوّته الادبية . فلا يرتاع من الاعتراضات ولا الانتقادات . ومن قبض على ناصية مخيّلته كفى ذاته ايضاً شرّ لسانه . فبئست الثرثرة ولاسيما في ذوي المقام ! فالصمتُ زينٌ والسكوتُ سلامة ، بل قوّةٌ وسؤدد !

اخيراً لا يملك ذاته من لا يجمع بين صلابة الرأي وسرعة التنفيذ . اجل على الرئيس ان يتروّى مليًّا ، ولاسيما في الامور الخطيرة ، قبل ان يبتّ فيها . امّا وقد حان وقت المضيّ والاجراء فلا يبقى مجالٌ للتردّد والاحجام . فكيف يقتضي الطاعة السريعة من لا يقرّ له قرار ، فيقول في القضية الواحدة تارةً نعم وتارةً لا .

هذا قليل من كثير . واني لعالم اني لم استوف الموضوع باجمعه . ولعلي ظفرتُ بلفت نظر القرّاء الكرام الى ما فيه من المسائل الهامة فشوّقت اليهم التعمق في درسها ، فحسبي !